التصادم في الشعر الجاهلي

أ. م. د. خباب سمير كريم اللامي **أ. م. د. إياد إبراهيم فليح الباوي**

الكلية التربوية المفتوحة الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية

الملخص:

يشهد الشعر العربي عموماً والشعر الجاهلي خصوصاً أمثلة ساطعة كثيرة على تصادم الشعراء مع أرباب السلطة السياسية والاجتماعية والدينية، ولم يكن هذا التصادم نابعاً من رغبة مستكنة في ذوات أولئك الشعراء على شرائح مجتمعاتهم وأعرافها القارة بقدر ما كان نابعاً من احساسهم بالحرية في القول، والتعبير عن الذات الفردية أو الجمعية يجب أن لا تكون لها سقوف محددة. وبيان ذلك ما نجد في قصائد جاهلية كثيرة، حتى ليكاد التصادم يكون ظاهرة في مسيرة شعرنا وشعرائنا على مر العصور.

ففي الشعر الجاهلي نجد اشارات واضحة صريحة على هذا التصادم بين الشعراء وقوى التحكم القبلي والسياسي، لذا تم تقسيم البحث إلى اتجاهين الاتجاه الاول هو العلاقة التصادمية بين المبدع والسلطة القبلية والسياسية، والاتجاه الثاني العلاقة التصادمية مع القيم الاجتماعية. حيث مثل الاتجاه الأول عدد من شعراء من بينهم طرفة بن العبد، إذ شكلت اشعارهم انشودة للعلاقات التصادمية بين الشعراء والسلطة.

مثَّل الاتجاه الثاني شعراء الصعاليك، فقد اسهم البناء الاجتماعي في تعميق الفوارق الحادة بين الطبقات الاجتماعية، مما دفع إلى ظهور بوصفها ظاهرة اجتماعية.

كان لكلتا الظاهرتين الأثر الواضح في شعر الشعراء من خلال معانيها واغراضها ومظاهرها الفنية.

التوطئة :

يظل الشعر الجاهلي ثرياً ، إذ يمكن أن تحيط به دراسة ، أو أنْ يلمّ بمعضلاته بحث أو كتاب ، فلا يخفى على أحد ما للشعر الجاهليّ من أهمية كبرى بوصفه منطلق الدراسات الأدبية، والدعامة التي يقوم عليها فهم تطور هذا الفن الأثير عند العرب إذ أن الشعر " ديوان العرب " فالشعر الجاهلي يمثل نقلة مرحلية متطورة للشعر العربي بعد اجتيازه مرحلتي النشوء والتعثر فوصل إلينا ناضجاً مكتمل الصياغة معبراً صدق التعبير

عن الواقع الانسان العربي ، ومن هنا يمكن القول جازمين بأن الشعر العربي عامة والجاهلي خاصة كان وثيقة دقيقة لمن يريد معرفة الحياة الجاهلية بكل جوانبها .

شهد التراث الشعري الجاهلي أمثلة ساطعة كثيرة على تصادم الشعراء مع أرباب السلطة السياسية والاجتماعية والدينية ، ولم يكن هذا التصادم نابعاً من رغبة مستكنة في ذوات أولئك المبدعين في الخروج على شرائع مجتمعاتهم وأعرافهم القارة بقدر ما كان نابعاً من إحساسهم بأن فضاء الحرية في القول، والتعبير عن الذات الفردية أو الجمعية يجب ألا تكون له سقوف محددة ، وأما من كانت بيدهم السلطة فكانوا يظنون أن رفع السوط عالياً في وجوه المخالفين لهم سيكون أسلوباً ناجعاً للإسكات وتكميم الأفواه .

وقد رفع السوط وفتح السجن ، وجرح الشاعر المتمرد وانتقد ، ولكنه لم يسكت، وبيان ذلك ما نجد في قصائد جاهلية كثيرة حتى ليكاد التصادم يكون ظاهرة في مسيرة شعرنا وشعرائنا، وسأكتفي بالإشارة إلى مواطن هذا التصادم المشفوع بأمثلة دالة على ما كان الشعراء الجاهليون يلاقون من عنت أرباب السلطات القبلية والسياسية ، ففي الشعر الجاهلي نجد إشارات واضحة وصريحة على هذا التصادم بين مبدعين وقوى التحكم القبلي والسياسي ، ونجد لزاماً علينا أن نقسم هذا البحث على اتجاهين ، الاتجاه الأول هو العلاقة التصادمية بين المبدع والسلطة القبلية والسياسية ، والاتجاه الثاني العلاق التصادمية مع القيم الاجتماعية.

اولاً : التصادم بين المبدع والسلطة :

المجتمع الجاهلي مجتمع صحراوي ، غلبت فيه البداوة على الاستقرار ، وكيف يكون الاستقرار في أرض قاحلة لا نبت فيها إلا في مواقع الغيث التي سريعاً ما تستحيل بفعل الرعاة لا نتجاعهم الدائب هذه المواطن ، وحقا كانت هناك مدن أو قرى شهدت نوعاً من الاستقرار حول الآبار ، ولكنها قليلة متناثرة ، يبقى بعدها محيط هائل من الصحاري الخالية التي لا ينقذ أهلها من الهلاك إلا سقوط الغيث ، من هنا سمو المطر غيثاً وحياة ، فهو الذي يغيثهم من الموت وهو الذي يهب لهم الحياة .

لذا كان العرب يتسابقون إلى مواقع السحاب ، كلٌّ يحاول أن يستخلصها لنفسه، وفي مجتمع –كهذا– لا تحكمه إلا شريعة القوة ، كان القوي يستأثر بهذه المواقع فارضاً عليها حمايته ، ولذا سميت بالحمى .

أبرز ما يمكن ملاحظته على الشخصية العربية الجاهلية الأنفة وعدم الاستكانة ، وربما أظهر لنا في هذا الإطار ما جاء في حديث كسرى ملك الفرس مع النعمان بن

المنذر ، إذ قال كسرى (... ثم لأراكم تستكينون على ما بكم من ذلة والقلة والفاقة والبؤس، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس) .

فرد النعمان قائلاً (... وأمّا العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والعسف) .

لذا العربي الجاهلي معتد بشخصه ، واثق من نفسه يأبى الذل ويرفضه ، ويقاوم القهر ويستهين في مقاومته بالموت ، سواء كان مصدر هذا القهر خارج القبيلة أو داخل الاسرة ، فكلاهما مرفوض لا مجال لنزعة الاستبداد وفرض الارادات ، على مجتمع آمن بقيم لا يمكن الحياد عنها .

هذه الطبيعة التي اتسمت بها الشخصية الجاهلية كان لها الأثر البالغ في تقديم الصورة الشعرية الناضجة ، التي اتخذت من الحياة إنموذجاً معبراً ، عمّا يدور حوله، فالتجربة الشعريّة الجاهليّة هي المعبر الأكثر قرباً للشخصية العربية الجاهلية؛ لمّا أتسمت به من نقل صورة حيّة للحياة الجاهلية ...

في ضوء ما تقدم يمكن القول إن للتصادم دلالته اللغوية المعروفة التي حدتها معجمات اللغة فإن للتصادم دلالته الفكرية وأنماطه وسلوكه إذ يكتنف التصادم بعدان جوهريان : أولهما الحرية وثانيهما الخصوصية الفردية ، إذ لا يمكن أن يتحقق التصادم دون إحساس المتصادم بضغوط القهر بكل أنماطه ومحاولته النزوح والخروج على أنماط القهر هذه ولذلك يسعى إلى حرية تكسر أنماط القهر ، كما أن خصوصية الأداء والفعل معبرة هي الاخرى عن هذا الكسر، بمعنى إن الخصوصية الفردية للمتصادم تقوده إلى خصوصية فعله في الواقع إن سلطة التصادم وتشريعه وقوانينه نابعة من هذين البعدين .

ويلتقي التصادم بالثورة كونهما يسعيان إلى تغير الواقع [1] ، ويبدو أنَّ ثمة أسباباً قوية تدفع إليهما ، بحيث يصل الأمر درجة من التأزم ، ومن ثم تستخدم القوة أداة للوصول إلى الهدف ، إن المتصادم يؤمن بعدالة قضيته التي يسعى من أجل تحقيقها في الواقع، كتصادم المضطهدين والمسحوقين بسبب الظلم والاضطهاد، أو كتصادم الفقر لما يفرضه المجتمع عليه بسبب التفاوت الاقتصادي الفادح .

ففي الشعر الجاهلي نجد إشارات واضحة وصريحة على هذا التصادم بين المبدعين وقوى التحكم القَبَلي ، ونجد هذا واضحاً صريحاً في معلقة طرفة بن العبد، إذ نجد الشاعر يصرّح بسطوة قيم القبيلة ، بعد موت أبيه وهو غلام صغير، فأبى أعمامه أن يعطوا أُمه وردة حقها ، فكان لذلك أثره الشديد في نفسه ، فأحس منذ نعومة أظافره

بالظلم، وبدأت شاعريته تتحرك على أنغام هذا الايقاع الحزين، محذراً قومه من تبعية الظلم ، الذي كان سبباً في اشتعال حرب البسوس بين بكر وتغلب، فيقول [2] :

ما تنظرونَ بحقٍّ وردة فيكم
صَغُرَ البنونَ ورهط وردة غُيَّبُ
قد يبْعَثُ الأمْرَ العظيمَ صغِيرةُ
حتى تظلَّ له الدِّماءُ تصبَّبُ
والظلمُ فرَّق بين حيَّيْ وائلٍ
بكرٌ تساقيها المنايا تَغلِبُ
أدُوا الحقوقَ تغِير لكم أعراضكم
إنَّ الكريم إذا يُحرَّبُ يَغضبُ

ويبدو أن قبيلته قد تظافرت – بعد ان شبّ – على ظلمه ، فأحسّ لهذا الظلم غضاضة وألما شديداً ، صوره بأنه مرير ، قوي الوطء على النفس ، لأن الإنسان يلتمس من ذوي قرأبته العون والمساعدة ، لا أنْ يظلموه ، وهذا واضح في شعر طرفه [3] :

وظلمُ ذوي القربى أشَدُّ مضاضة
على المرءِ من وقع الحسام المهنَّدِ

ولم يكتفِ الشاعر بذلك وأنما دفعه لأن يصرح في شعره بأن أحد أبناء عمومته كان يكرهه ، ويعامله معاملة سيئة ، ويكيد له بغير سبب ، وأن طرفة قد حاول كثيراً أن يصلح ما بينها ، ولكنه ما من مرة يتقرب فيها إليه إلا ازداد ابن عمه بعداً عنه ، إلى أن أصبح طرفه في يأس تام منه [4] :

فما لي أراني وابن عمي مالكا
متى أدنُ منه ينأَ عنِّي ويبعُدِ
يلومُ وما أدري علامَ يلومني
كما لامني في الحي قُرط بن أعبَدِ
وأياسني من كل خير طليتهُ
كأنَّا وضعناهُ على رمس مُلحَدِ

فقد اضطر الشاعر أمام عوامل الاضطهاد والخلاف مع أبناء عشيرته ، إلى التغريب ، وتردد على الملك عمرو بن هند ملك الحيرة طلباً للنوال ، ويبدو إنه كان على

جانب كبير من الاعتداد بالنفس ، ومن هنا جاءه الموت من حيث انتظر الحياة ، فالانتظار والمكوث طويلاً دفع بطرفة أن ينتقد هذا الاسلوب الذي يتعامل به ملوك الحيرة مع وفود القبائل التي تفد على بلاطات هذه الإمارة ، ولعل هذا يستغرق وقتاً طويلاً مما يجعل الوافدين في حيرة من امرهم ، هل يستمرون في الانتظار أم يعودون من حيث اتوا ، لقد صور طرفة في مقطوعته الشعريّة ، حال انتظار وفود القبائل بطائر الكروان وقد يكون الكروان افضل حالاً منهم لأنهم لا يعلمون متى يسمح لهم باللقاء ، ويبدأ طرفة بالهجوم على الملك واصفاً اياه بالنعجة [5] :

فليت لنا مكان الملك عمرو
رغوثاً حول قبتنا تخور
من الزمرات اسيل قادماها
وضرتها مركنة درور
يشاركنا لنا رخلان فيها
وتعلوها الكباش فما تنور
لعمرك أن قابوس بن هند
ليخلط ملكه نوكٌ كثير
قسمت الدهر زمن رخيٍّ
كذاك الحكم يقصدا ويجور
لنا يومٌ وللكروان يوم
تطير البائسات ولا نطير
فأما يومهن فيوم نحسس
تطاردهن بالحدب الصقور
أما يومنا فنظل ركباً
وقوفاً ما نحل وما تسير

في هذه الأبيات يصور مدى الطغيان والاستبداد الذي كان عليه عمرو بن هند في تعامله مع الرعية وكانت هذه الابيات سبباً بقتله ، بعد أن ارسل بيده كتاباً الى عامله على عمان بعد رحلة طويلة عاشها غريباً عن اهله وديارة ، متنقلاً بين الاحياء والقبائل ، حيث

تلقى طعنة نفسية قاسية من إحدى النساء حين قالت له ، أليس لك أهل تعيش بينهم ؟ فرد عليها داعياً إن تذوق مرارة الغربة وألم البعد عن الأهل ، ويقول [6] :

ولا غروَ إلا جارتي وسؤالها

ألا هل لنا أهلُ ؟ سُئلتِ كذلك [7]

تعيرني جوب البلاد ورحلتي

ألا ربَّ دار في سوى حرَّ دارك

ويبدو أنه قد ضاق بحياة الغربة وذلها . وهو صاحب النفس الأبية، فتمنى أن يعيش بين أهله .

وهنا يبدأ الصراع أو بؤرة الصراع في حياة الشاعر؛ يعيش غريباً كالميت الهالك ، أو متمنيا العيش بين أهله كريماً ، ولكنّه لا يستطيع خلق هذا التوازن ، فأهله قد اتفقوا على ظلمه، واحتقاره، وقطع حبال الود التي يريد لها أن تقوى وتشتد :

وليس أمروٌ أفنى الشباب مُجاوِراً

سوى حيِّهِ إلا كأخر هالكِ

يقرر علم النفس إن الانسان بطبيعته مزود بقابلية لأن تثيره المثيرات ، ويحاول الانسان لدى تعرضه لأي مثير أن يخفف أثر المثير ، ليبطل توتره ويستعيد توازنه، وحينما يكون المثير من القوة بحيث تعجز الاستجابة عن مجاراة تأثيره ، يظل التوتر مستمراً ليعطي إحساساً بالألم [8] .

منذ نعومة أظفاره تصادم طرفه بعدد من المثيرات ، سبب له توتراً نفسياً حاداً ، ساعد عليه عدم نضج الشاعر ، فوقف عاجزاً عن تجاوز هذا التوتر أو صرفه ، فظل توتره قائماً مستمراً يمزق نفسه ويمده بجرعات الألم لم يستطيع معها صبراً.

لقد فقد مبكراً ، وشاء أهله أن يعمقوا جراحاته ، فمنعوا أمه حقها في مال أبيه ، ثم وجد نفسه عاجزاً عن رد الظلم أو قبوله .

كان طرفه إذن على موعد مع الصراع النفسي الحاد منذ صغره ، لما عاناه من ظلم وسوء معاملة ، وممن ؟ من أهله وعشيرته الذين يفترض فيهم أن يكونوا له عونا ، وأن ينصروه ظالما او مظلوماً .

رفض طرفة هذا الظلم ، لما فطر عليه من عزة وإباء وذكاء ، وهو الأمر الذي جعله أكثر حدة في طباعه ، وأكثر قابلية للاستثارة، فبدأ يعاني في أعماقه صراعاً عنيفاً،

عبّر عنه بتلك الأبيات التي طالب فيها بحق أمه في مال أبيه ، وهي الأبيات التي حذر فيها قومه من تبعية الظلم، لذا نجد طرفة يصرّح بسطوة قيم القبيلة عليه حين أسرف على نفسه في طلب المتعة بالخمر ، فقال في ألم عميق ، في تصوير لغربته وهو بين ظهراني عشيرته [9] :

وما زال تشرابي الخمور ولذاتي

وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها

وأفردت إفراد البعير المعَّبدِ

بل لعلّ هذا التهالك على شرب الخمر ، وطلب اللذة بها كان هروباً من حدّة المعاناة التي كان يحياها فهي – الخمرة – تعلته وسلوانه ، حين أهملته قبيلته وأتت على ميراثه ، فأقام لنفسه قيماً أنجاز إليها كلياً :

ولولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى

وجدّك لم أحفل متى قام عوَّدي

فمنهنَّ سبقي العاذلاتِ بشرية

كُمَيْتٍ منى ما تُعْل بالماء تُزبدِ

وتقصيرُ يوم الدَّجنِ والدَّجنُ معجبٌ

ببهكنةٍ تحت الخباء المعمَّدِ

وكرِّي إذا نادى المضافُ محنِّباً

كسيد الغضا نبهتهُ المتورِّدِ

فقيم الشاعر غير قيم القبيلة التي مارست عليه التضييق ، أو هي قيم القبيلة التي كانت بمثابة صمام أمان ، ترقب و تحاسب شاعراً شاباً متهوراً ، أمن بحريته وبذاتيته، ولم ينضبط سلوكه ولم ينسجم مع منظومة القيم والأعراف القبلية السائدة؛ وذلك جعل حياته وقفاً على معاقرة الخمرة ، ومضاجعته النساء ، والاستعداد المسرف لنجده الملهوفين والمستنجدين .

ولم يكن طرفة بن العبد – وهو غارق في بحر لذاته – بغافل عن مأساته ، صراعه مع قومه ، وعجزه عن الثأر لنفسه ، ولكنه يستطيع في النهاية أن يحول الأمر الى صراع ضد الوجود والعدم ، وكانت تلك مأساته في نهاية أيامه ، يرددها ايقاعاً حزيناً

يائساً ، وكأنه يرثي نفسه في لحن جنائزي حزين ، وقد شعر بالموت يدنو رويداً رويداً[10]:

أرى الموت يَعْتَامُ الكرامَ ويصطفي
عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ
لعمرك إنَّ الموت ما أخطأَ الفتى
لكالطُوَلِ المُرخى وثنياهُ باليد
متى يشأ يوماً يقده لحتفهِ
ومن يك في حبلِ المنية ينقدِ
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ
وما تنقضُ الأيام والدهرُ ينفَدِ

وسكت طرفة إلى الأبد وهو ابن خمس وعشرون سنة بعد ان سجل مأساة بؤسه وهوانه ، ومحنته بأهله وزمانه ، في لوحات حيّة نابضة بالصدق والحرارة والابداع .

وثمة تصادم آخر بين المبدعين وقوى التحكم المتمثلة بالامارات العربية ، ويمكن أن نسمي هذا التصادم بالتصادم الجمعي بين القبيلة المتمثلة بشعرائها من جانب والأمراء والملوك من جانب آخر ، وهذا واضح وجلي في الشعر الجاهلي ، ويمكن الوقوف على هذا الجانب من التصادم ، فقد ضاقت ذرعاً القبائل العربية من القوانين التي كانت تفرض من الامارات العربية وخصوصاً المناذرة الذين كان لهم احتكاك مباشر مع القبائل العربية ، لذا انصب اهتمام الشعراء على معالجة بعض الجوانب التي يرونها تثقل كواهل قبائلهم ، وتصوير معاناتهم من خلال رفضهم لسياسية هؤلاء الملوك ، وما اشتملت عليه من فرض لضرائب الباهضة والاتاوات التي لا تتناسب مع الدخل الذي تحصل عليه القبائل، فهي عبءٌ ثقيل ينوء به كاهلهم، إذ لم يلفوا مثل هذا في حياتهم السالفة، فنظموا شعراً انطبعت فيه آثار هذه المعاناة، ولعل ابرز من صوّر هذا الجانب الشاعر جابر بن حني التغلبي، فقد أشاد بمأثر قومه ثم زعم أن ما فرض عليهم من ضرائب لا يتناسب مع ماضي القبيلة ، ولا يمكن أن يحد من حرية قبيلته فهم أهل المأثر التالدة والشمائل الكريمة ومضرب المثل في الإباء وعدم الخنوع، ويذكر ثورنهم على عمرو بن هند يوم وقف في وجهه أميرهم عمرو بن كلثوم وكذلك قتلهم شرحبيل وهو عم امرئ القيس الكندي ، فهو يهددهم بالمثل إذا انتهكوا حرماتهم وأرادوا إذلالهم [11] :

لتغلب أبكي إذ أثارت رماحنا

غوائل شرَّ بينها متشلِّم

وكانوا هم البانين قبل اختلافهم

ومن لا يشد بنيانه يتهَّدم

وفي كل أسواق العراق أتاوة

وفي كل ما باع امروٌ مكس درهم

إلا تستحي منا ملوك وتتقي

محارمنا لا يبؤ الدم بالدمِ

تعاطي الملوك التسلم ماقصدوا

بنا وليس علينا قتلهم بمحرَّم

وكائن ازرنا الموت من ذي تحيةٍ

إذا ما ازدرانا او سق لمأتم

ويبقى الشاعر لسان قومه والمدافع عن حقوقهم في وجه أي طغيان أو استبداد يحاول النيل من كبريائهم وأنفتهم ، لذا تجد التصادم حاضراً من أجل هذه القيم التي يؤمن بها ، ومنها وقوف يزيد بن الحذاق بوجه النعمان بن المنذر ، وقد أقسم الاخير أن يغزوهم، يقول تحلل من قسمك ، فما أظنك قادراً البر به ، ويستمر الشاعر بالتهديد قائلاً : أقيموا عنا صدوركم فلسنا فلاحين اذلاء ، فنعطي المكوس – اي الضرائب – لمن يطلبها وإن لنا من القوّة والقدرة ما يردّك عمّا تريد بنا من ظلم .

إلا هل أتاها إن شكه حازم

لديَّ وأني قد صنعت الشموسا

وداويتها حتى شتت حبشية

كأن عليها سندساً وسدوساً

قصرنا عليها بالمقيظ لقاحنا

رباعية بازلاً وسديسا

قاضت كتيس الرَّبل تنزوا اذا

نزت على ربذات يغتلين خنوساً

تُعدُّ ليوم الرَّوع زغفاً مفاضةً
دلاصاً وذا غرب أخذَّ ضروساً
تجيدُ عليها البز من في كل مأزق
إذا شهد الجمع الكثيف خميسا
تحلَّل ابيت اللَّعن من قول اثمٍ
على مالنا ليقسمن خموسا
إذا ما قطعنا رملةً وعدا بها
فإن لنا امراً أخذَّ غموسا
اقيموا بني النعمان عنا صدوركم
وإن لا تقيموا كارهين الروَّسا
أكل لئيم منكم ومعلهجُ
يعُدُّ علينا غارةً فخبوسا
إلا ابن المعلىَّ خلتنا وحسبتنا
صراري نعطي الماكسين مكوسا
فإن تبعثوا عيناً تمنى لقاءنا
تجد حول ابياتي الجميع جلوسا [12]

أتخذ التصادم منحى آخر لدى شعراء القبائل ، من خلال الإمعان بتحريض قبائلهم على الوقوف بوجه طغيان الملوك، ورفض سياستهم التي تؤدي إلى إخضاعهم ويمكن أنْ نلمس هذا من خلال قصيدة المتلمس التي يوجهها إلى قومه من أجل التصدي للملك ورجاله وعدم الخنوع لسطوة الملك ، ومن الطريف أن الشاعر يسجل لنا انقياد قبيلة عبد القيس لنظم الحكم وللملوك وتمرد بكر عليهم ، وهو يطالب قومه بأن يكونوا كبكر .

إن الهوان حمار القوم يعرفه
والحرُّ ينكره والرسلة الاجدُ
كونوا كبكر كما قد كان او لكم
ولا تكونوا كعبد القيس إذ قعدوا
يعطون ما سئلوا والخط منزلهم
كما أكب على ذي بطنه الفهدُ

ولن يقيم على خسف يسام به
إلا الأذلان عبر الأهل والوتدُ
هذا على الخسف مربوط برمته
وذا يشجُّ فما يرثي له أحدُ
فإن أقمتم على ضيم يراد بكم
فإن رحلي لكم والٍ ومعتمد
كونوا كسامة إذ شغف منازله
إذ قيل جيش وجيش حافظ رصد
شد المطية بالانساع فانحرفت
عرض التنوفة حتَّى مسها النجدُ
وفي البلاد إذا ما خفت ثائرة
مشهورةً عن ولاة السوءِ مبتعدُ (13)

ومن القصائد الجاهلية التي شكلت أنعطافة في العلاقات التصادمية بين المبدع والسلطة والتي تحسن الإشارة إليها في هذا السياق معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي فقد علا جرس الشاعر فيها علواً مبيناً ، فصارت تقرأ حين تقرأ ، خطبة عالية النبرات صاخبة ، اشبه ما تكون بكتل من الحجارة يقذفها في وجه الملك عمرو بن هند حين حاول إذلال قبيلة تغلب في شخص شاعرها عمرو بن كلثوم ، وهو الناطق الرسمي – بلغة السياسية والاعلام في هذا العصر – لتلك القبيلة ، فقال يستعلي على ذلك الملك ويهدده مفتخراً بقومه ممجداً قبيلته وإيامها ، ومذكراً بقوتها ، وإنها لا تقبل على النظم والاضطهاد حتى وإن كان من ملك بقوة عمرو بن هند.

ألا لا يعلم إلاقوام أنا تضعضنا وأنا قد ونينا
ألا لا يجلهن احدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأي مشيئة عمرو بن هند تكون لقبلكم فيها قطينا
بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
يهددنا واوعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتوينا
فأن قناتنا ياعمرو أعيتِ على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا عض الثقاف بها أشمأزت وولتهم عشوزتهُ زبونا

عشوزنة إذا انقلبت أريت تشيج قنا المثقف والجبينا [14]

ويمكن أن نلمح من خلال التصادم بين المبدع والسلطة جانبين مهمين هما فضح حالة الاستبداد والطغيان التي تمارسها السلطة القبلية من جهة السلطة المتمثلة بالامارات العربية اتجاه الرغبة ، والحالة الثانية هي حالة الرفض لمثل هذه السياسية والتعامل المنافي لطبيعة العربي وهي تؤكد ما كان يؤمن به العربي من عدم الخضوع لمثل هذا الطغيان والجبروت .

ثانيا : التصادم بين المبدع والقيم الاجتماعية :

تمثل القبيلة البناء الاجتماعي الاساسي الذي بنيت عليه الحياة في الجاهلية ، وهي تعني تكوينا اجتماعياً يضم أسراً تنحدر من أصل واحد (ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة ، فالرابط الذي يربط بين أبناء القبيلة ويجمع شملها ويوحد بين أفرادها هو الدم ، أي النسب ، والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية، والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقها الأعرابي ، حيث لا يشاهد حكومة أُخرى فوقها ، وما تقرره حكومته هذه من قرارات وينفذ وبها يستطيع يأخذ حقه من المعتدي عليه)[15]، ويمكن القول إنّ القبيلة تمثل كياناً كاملاً يشبه كيان الدولة اليوم ، إذ لها زعيمها ، ونظامها السياسي الذي يحكمها ، فضلاً عن القوانين التي تلتزم بها ابناء القبيلة ، وكان الأساس الذي يقوم عليه النظام القبلي هو العصبية ، وهو (أنْ يدعو الرجل إلى نصره عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين وليس له أنْ يسأل أهو ظالم أم مظلوم؟)[16] .

وممّا تقدّم نذهب الى القول إن القبيلة تمثل البنية الاجتماعية الكبرى تضم تحت جناحيها الإنسان العربي ، وتظله بحمايتها في إطار العرفية التي تجمع بين افراد القبيلة الواحدة ، وقد قاد هذا إلى قدر كبير من التلاحم بين أفراد القبيلة (لأنّ الوسيلة الوحيدة والفاعلة التي يعتمد عليها في الحماية وتأمين سبل المعيشة وحفظ البقاء، لذا اعترف بها الأفراد بما يحقق لهم من مصلحة مشتركة فيما بينهم)[17]، فأصبحت القبيلة إنما تمثلهم جميعاً ، فأفعالها مؤثرة ومعبرة عن الفرد ، كما أن افعال الفرد تعبر بالضرورة عن القبيلة سلباً أو أيجاباً ، وكان الفرد في القبيلة يدافع عن القبيلة، هي الأخرى تدافع عن الفرد ونتج عن هذا (النوع من النماذج الفرد داخل المجموعة ، وإنَّ هذا الفرد إذا ما أحرز بطولات فهي تنسب لقبيلته اولاً، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنّ القبيلة قد تحارب بأكملها

وتحرز (بطولات) دفاعاً عن هذا الفرد أصلاً، أي أنَّ التساوي الفردي والاندماج ، وإنَّ البطولة الشخصية التابعة من القبيلة ليست فردية بقدر ماهي جماعية متبادلة)[18] .

تعد البنية التكوينية للمجتمع القبلي الجاهلي رابطة الدم العروة الوثقى التي تجمع أبناء الأصل الواحد ، والتي تتجه عنها إيمان قوي وتمسك شديد بصفاء النسب ونقائه من طرفيه . لذا تكون المجتمع القبلي من طبقات متعددة هي على النحو الآتي:

1- الصرحاء – فهم ابناء القبيلة الذين يرجعون في دمائهم إلى الجد الأعلى ، ولا تشوب أنسابهم شائبة ، ويمكن أن نسميهم الطبقة الارستقراطية في القبيلة.

2- الموالي وهم الطبقة الثانية المتكونة من العربي الحر الذي لجأ الى قبيلة أخرى غير قبيلته لأي سبب كان سواءً كان خلعاً أم غيره وعاش في حمايتها ، والعبد المملوك أو الرقيق أو الأسير الذي يمّن عليه مالكه بالحرية .

3- الطبقة الثالثة وهي طبقة العبيد فهي الطبقة التي تقع في قاع القبيلة ، فهم إمّا أولئك الأسرى الذين يقعون في أيدي القبيلة في صراعها مع القبائل الأخرى ، وإمّا سود جلبوا من أفريقيا ، وإمّا بيض مستوردون من العراق وبلاد الشام ، وإمّا أن يكونوا من الهجناء ، والهجين الابن العربي من غير العربية [19] .

إن بنية القبيلة – كما اسلفنا – بنية طبقية تقع في قمتها طبقة الصرحاء وتقع في قاعها طبقة العبيد ، ويمثل الموالي طبقة متوسطة بين الطبقتين، من حيث الاهمية و القيمة .

وانسجاماً مع هذا التمايز الطبقي في المجتمع القبلي ، أنتج مجموعة أطلقت على نفسها بـــ (الصعاليك) الذين أنبروا لدفاع عن قيم ومثل أخرى آمنوا بها ، كردّ فعل على الظلم والاضطهاد الذي لحق بمجموع من الناس ، نتيجة القيم والعادات التي فرضتها القبيلة .

لذا لم تكن الصعلكة ظاهرة طارئة على الحياة الاجتماعية الجاهلية ، وإنما ولدت بشكل طبيعي لتعبر عن التناقض الكامن في المجتمع الجاهلي ، وتنبئ عن مدى التردي في الواقع العربي اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ، فلقد انقسم المجتمع القبلي الى الطبقات الاجتماعية التي سبق ذكرها ، كما انقسم المجتمع من الناحية الاقتصادية إلى طبقتين :

طبقة تملك الأموال ، وهي المسيطرة على مظاهر الحياة بكل الوانها وأشكالها، وطبقة فقيرة معدمة تعيش على هامش الحياة، وقد اسهم البناء الاجتماعي في تعميق الفوارق الحادة بين الطبقات المجتمع الجاهلي، ممّا دفع إلى ظهور الصعلكة بوصفها ظاهرة اجتماعية، وحالة من حالات التمرد على البناء القبلي ، لان مشكلة الصعاليك (لم تكن مشكلة قبائلهم وإنما كانت مشكلة النظام القبلي نفسه ، وهذا ما أوجد بين الصعاليك

مشتركاً، يعبر بالتضامن الفعلي أو المفترض مع شعور حنيني بأنهم مجتمع مصغر يختلف عن المجتمع القائم ، ومن ثم فقد تميزوا بفقد الاحساس بالعصبية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي ويتطورها في نفوسهم إلى عصبية مذهبية)[20] .

إن البناء الاجتماعي للصعلكة يتجاوز البناء الطبقي المتعدد الطبقات إلى طبقة اجتماعية واحدة يتساوى فيها الجميع ، وقد كونت هذه الطبقة الجديدة طوائف ثلاثة انحدرت من المجتمع القبلي ، ويمكن ذكرها على النحو الآتي:

1- طائفة الخلعاء والشذاذ ، وهي الطائفة التي اضطرت قبائلهم إلى خلعهم .

2- طائفة الأغربة ، وهم العبيد السود الذين سرى لهم السواد من أمهاتهم .

3- طائفة الفقراء الذين يتصعلكون بسب الفقر والفاقه التي فرضتها الظروف الاقتصادية السيئة في المجتمع الجاهلي .

أن تمرد الصعاليك على القبيلة كان تمرداً على نظامها وقوانينها وعاداتها وقيمها ، واستبدال الصعلوك ذلك بمجتمع جديد له قيمة وقوانينه ، ولقد تغيرت فيه امور كثيرة إذ يهدف الصعلوك إلى هدم البناء الطبقي في القبيلة ، وأشاد بدلاً منه نظام طبقه واحدة يتساوى فيها الناس ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بالتحرر من ربقة النظام القبلي باستخدام القوة وسيلة لتحقيق الأهداف ، ولذلك فإنّ كل مايمكله الصعلوك ذكاء ، وسيف ، وأنفة ، وإن هذه المقومات الثلاثة تبعد عنك مظالم المجتمع القبلي كما يقول عمرو بن براق الهمداني [21] :

متى تجمع القلب الذكيَّ وصارماً

وأنفاً أبياً تجتنيك المظالـــــمُ

ويتجلى من ذلك أن الحياة ركنين : عيش كريم أو موت، وكأن الشاعر الصعلوك قد تمرد على هذه المنطقة الوسطى التي تقع بين العيش الكريم والموت، وهذا مأكده البيركامو في اثناء حديثه عن خصائص التمرد عند الانسان، لأن المتمرد يريد (أن يحيا، ويعترف به في شخصه إنه يريد أن يكون هذا أو أن يكون لاشيء ، أي أن تحرميه القوة المتحكمة حرماناً نهائياً ، وهو في نهاية يرضى بالحرمان والسقوط الأخير ، ونعني الموت ... إنه يؤثر أن يموت عزيزاً رافع الرأس على أن يعيش عيشه الهوان) [22] .

وتؤكد لامية العرب للشنفرى هذه المعاني ، بحيث يستبدل الشاعر الناس بالحيوان، ويستبدل الأصحاب بأخرين، بقلب لا يعرف الخوف ، وسيف مصقول، وقوس قوية[23]:

وإني كفاني فقد منْ ليس جازياً

بحسنـــــى ولا قُربِهِ متعلـــلُ

ثلاثة أصحابٍ فـــؤاد مشيَّـــعُ

وأبيضُ إصليتٌ وصفراء عَيْطَلُ

فقد وجدنا الشاعر منذ البيت الاول فيها يكشف عن هذا العنت المقيم من ازدراء قبيلته له، فعاش مشرداً، والاغارة على القبائل ، انتصاراً لمبادئه التي خالفت القيم القبلية، وهذا النهج لم يختص به الشنفرى دون سواه وإنما كان نهجاً أتبعه شعراء الصعاليك او الصعاليك بشكل عام ، فهم لم يستطيعوا الانسجام لسبب أو لآخر مع منظومة القيم والاعراف القبلية ، فأخذ الشنفرى يقول :

أقيموا بني أمِّي صدوركم مطيكم

فإنَّي إلى سواكـــم لأميـــلُ

أما القوم الذين ارتضاهم بديلاً عن بني أمه فهم مجموعة من السباع الضارية التي ألفها وألفته ، فوجد فيها البديل المعَّوض عن الأمان المفقود في ربوع القبلية :

ولي دونكم أهلون عملّس

وأرقط زهول وعرفاء حيأل

هم الأهل لا مستودع السر ذائع

لديم ولا الجاني بما جاء ويخذلُ

فالاهل هنا هم الذئب والنمر والضبع وهي حيوانات تمثل رمزاً للتشرد والافتراس، والشبع مرتبط بالحياة على جثث القتلى ،هؤلاء الأهل الذين أختارهم الشنفرى هم المعادل الموضوعي للشنفرى في التشرد وميله للانتقام وإحساسه بالظلم ورفض هذا الظلم :

ولولا أجتناب الذام لم يبق مشرب

يعاش به إلا لدى ومأكل

ولكن نفساً حرةً لاعظيم بي

على الضيم ألا ريثما أتحول

رفض الذل والهوان يمثل سمة من سمات الفارس الجاهلي بوجه عام وهو سمة جوهرية من سمات الشاعر الصعلوك . إلا أن الحياة الثائرة على المجتمع والمتوحشة التي

عايشها الشعراء تمنعهم من التحلي بأفضل القيم الأجتماعية السائدة في المجتمعات الجاهلية ولعلّ أصدق مثال ما في شعر عروة بن الورد من قيم وفضائل ودعا إليها في شعره .

وإن كان عروة هو مقرر مبادئ الصعلك ، فإن الشنفرى جعل لاميته حافلة بالقيم الفاضلة فكان الخلفاء يحرصون على تعليمها لأولادهم ، لذا فأن شعراء الصعاليك جميعهم اتفقوا على هذه القيم وحاولوا أن يظهروا بها فنراهم دائما يحاولون الظهور بمظهر السيد المفتخر بأفضل القيم والداعي اليها ، يقول عفيف عبد الرحمن (لم يعرف الأدب العربي في عصوره المتقدمة التزاماً كما عرف في الادب الجاهلي ، وفي الوقت نفسه لم تبرز حركة متمردة على التقاليد كتلك التي برزت وأعني حركة الصعاليك)[24] .

لعل ما واجهه الصعاليك من ضيم وعذابات جعلهم يفتخرون بأنفسهم وهم يضيقون عليها صفات السادة ويتعاملون بكبرياء وأنفه ، إذ إن معظمهم لا يرتفع بهم نسبهم إلى درجة الفخر والاعتزاز وإن لم يصرح شذاذهم وخلعاؤهم بذلك ، عدا عروة الذي اعترف بوضاعة نسبه من جهة أمهِ حيث يقول [25] :

لاتلم شيخي فما أدري به

غير أن شارك تهد في النسب

بينما كان للشنفرى رأي أخر فهو يفتخر بنسبه في احدى مقطوعاته ، إذ يقول لأحدى بنات القبيلة (أغسلي رأسي يا أخية ، فاتكرت أن يكون أخاها ولطمته .. فقال :

ألا ليتَ شعري والتلهف ضلة

بما ضربتْ كفٌّ الفتاةِ هجينها [26]

ولو عَلِمتْ قعُسوسُ أنساب والدي

ووالدِها ظَلَّتْ تقاصرُ دونها [27]

أنا أبن خيار الحُجْرِ بيتا ومنصبا

وأمي أبنة الأحرارِ لو تعرفينها [28]

لقد قدم الصعاليك صورة للتصادم الملتزم وغير الملتزم في مواجهة مافي المجتمع الجاهلي من مفارقات ، فقد انطلق الصعاليك من إحساس بالظلم إلى رفض هذا الظلم لوجود عوامل دفعتهم لذلك ومكنتهم من هذا الرفض ايضاً، وإذا كان هذا التصادم ليس تصادماً فلسفياً ، وإذا كانت اسسه النظرية غير واضحة وضوح الاسس النظرية الفلسفية ، فإن ذلك لا يعني إن الصعلكة كانت بلا جذور نظرية أو فلسفية ، صحيح أنها أقرب إلى

التصادم الطبيعي الذي يواجه فيه الانسان المجتمع ، يقبل ويرفض ما تمليه عليه نفسه وذاته وأتخاذ مواقفه دونما اعمال الفكر ، ولكن الاختيار لم يكن مقطوعاً من التفكير والتأمل وتقديم الموقف من خلال رؤية ذات أبعاد فكرية وملامح فلسفية ، وجسد عروة بن الورد هذا المفهوم من خلال رفضه لبعض المفاهيم التي كانت سائدة في المجتمع القبلي ، فهو يرفض أن يكون الثراء اساساً للسيادة ، يقول [29]

أما بالثراء يسود كل مسود

مثر ، ولكن بالفعال يسود

حاول الشاعر أن يجعل للسيادة أساساً أخر ، بالأطلاق في الغنى والفقر ، فهو لا يكاثر في يسره صاحباً ، ولا يصد عنه في فقرة فينسل من نيله ولا يرى متخشعاً لغني بخيل ، وهو يجد من الصعب إن يغير الواقع ومن نظره المجتمع للغني والفقير ووجد لزاماً عليه أن يطلب الغنى حتى يصبح واحداً من السادة الحقيقين في إطار الرؤية القبلية فيقول[30] :

وعيني للغنى أسعى فإني
رأيت الناس شرهم الفقيرُ
وابعدهم وأهونهم عليهم
وإن أمسى له حسب وخيرُ
ويقصيه النَّـــديُّ وتزدريــهِ
حليلتــه وينهــرهُ الصغيــرُ
ويلفي ذو الغنى وله حلال
يكاد فؤادِ لافيــه يطيــرُ
قليل ذنبــه والذنــب جــم
ولكــن للغنى ربُ غفور

إن الفقر نفي اجتماعي أخر يعاني منه الصعلوك إذ يقترن الفقر بالشر والهوان ولازدراء والانتهار والذنب ، في حين يقترن الغنى بالصفات المضادة تماماً، فالحياة المستقرة والعيش الرغيد ، كان ينشدها الصعاليك بعيداً عن الجوع والعبودية ، ولذلك كانوا يجدّون بحثاً عن الغنى والثراء غير مبالين بالوسيلة التي توصلهم إلى هدفهم ، رغم

هذا فإنهم لم يحققوا هذه الغاية التي ينشدونها، إذ نجد عروة بن الورد قد بقي فقيراً رغم كل محاولات الاغارة السلب يقول [31] :

دعيني أطوِّف في البلاد لَعلّني

أفيد غنى فيه لذِي الحقَّ محملُ

أليس عظيماً أنْ تلم ملمّة

وليس علينا في الحقوق معوَّلُ

فإنْ نحن لم نملك دفاعاً بحادثٍ

تلم به الأيام فالموت أجملُ

فالشاعر يوازن بين حقيقتين الموت والحياة الكريمة متمثلة بالغنى ، إذ يجعل الطواف علّة الصراع مع الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه ، فالطواف يعني الحركة نحو غاية محدودة فإنه يقود الشاعر الى أحد الأمرين الغنى (الذي يتضمن الحياة) في زمن الفقر والبؤس، والموت الذي يعني خلاصاً من حياة بائسة .

قد قاد النبذ الاجتماعي للصعاليك إلى اعلان الثورة والحرب على الظلم والظالمين، غير إن التفنن كان متبايناً وكذلك الهدف ، فلكل مجموعة كانت لها بعض القيم والمبادئ التي تنطلق منها في حربها ضد الظلم والظالمين ، لذلك تجد الفرق واضحاً بين ثورة عروة التي كانت تهدف إلى تحقيق قيم أنسانية نبيلة تسمو بالإنسان ، وتعلي صوت الحياة الكريمة يطمح من خلالها الى رفع الحيف وتبديد شبح الظلم عن أولئك المسحوقين المقهورين .

حيث انطلق عروة في صعلكته من أساس إنساني قائم على رفض التناقض ونبذ التمايز والعمل على تصحيح الخلل في التوازن الاجتماعي ، والغاء الفروقات الأقتصادية بين فئات المجتمع وتحقيق نوع من العدالة في توزيع الثروات ، إذ جعل عروة للعمل قيمة وخص على طلب الرزق والغنى وحاول أن يعمق هذه القيمة بين صعاليكه ، لتصبح سلوكاً دائماً في حياتهم والعمل بقصده هو الغزو والاغارة ، واغتصاب المال بالقوة من الذين أعمى الجشع عيونهم عن رؤية بؤس الفقراء، ويميز عروة بن الورد بين نمطين من الصعاليك الأول خامل كسول ، يقول[32] :

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليلهُ

مصافي المشاشَ ألفاً كل مجزر

يعدّ الغنى من نفسه كل ليلةٍ

أصاب قراها من صديق مُيسَّرِ

ينام عشاء ثُمَّ يُصبح ناعساً

يحث الحصا عن جبنه المتعفر

قليل التماس الزَّادِ إلا لنفسه

إذا هو أمسى كالعريش المجورَّ

يعين نساء الحيَّ ما يستعينهُ

ويمسي طليحاً كالبعير المحسرِ (33)

والثاني لايعيش هذه الحياة ، بل إن شراسته تتجاوز الحدود ، إذ يشهر سيفه ويخاتل خصومه من أجل أن يعيش ، وقد يموت في سبيل ذلك وكلا الامرين ينتزعها بارادته ، وفي كليهما حياة بعز أو موت يلقاه وهو حميد السمعة ، يقول(34):

ولكن صعلوكاً صفيحة وجهة

كضوء شهاب القابس المتنورِ

مطلاً على أعدائه يزجرونه

بساحتهم زجر المنيح المشهر

إذ بعدُوا لايأَمنون اقترابهُ

تشوف أهل الغائب المنتظر

فذلك إن يلق المنية يلقها

حميداً وان يستغن يوماً فأمحز

فالمنهج الذي أتبعه الصعاليك منهج الكسب ورفض القعود وانتظارعطف الأغنياء، ورفض البلادة والكسل، ويقبل على الجسارة وانتزاع المال من أيدي الآخرين ، ثم إنفاقه بسخاء على الرفاق . بقول السليك بن السلكة (35) :

ألا عتبت عليْ فصار متني

واعجبهـــا ذو واللَمَـــمِ الطَّوالِ

فإنِّي يا أبنة الأقوام أربي

على فعل الوضيِّ من الرِّجالِ

فلا تَصِلي بصعلوكٍ نئوم

إذا أمسى يُعَدُّ من العيالِ

ولكن كل صعلوك ضروبٍ

بِنَصلِ السيف هامات الرجال

ويقول تأبط شراً [36] :

فذاك همي وغزوي استغيث به

إذا استغثت بضافي الرأس نَّغاق

كان الرد المناسب لما كانوا يكابدونه من الفقر والجوع ، فهذه الصيحات تمثل ماتمور به نفوسهم من ثورة على الأغنياء والأشماء ، ويروي السليك بن السلكة ، في بعض شعره ، كيف كان يغمى عليه من الجوع في شهور الصيف كاد يشرف على الموت والهلاك [37]:

وما نلتها حتى تصعلكتُ حقبةً

وكدت لاسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني

إذا قمت تغشاني ظلال فأسرف

فالصبر على الجوع إلى حد الذي يرتضي معه أن يسف تراب الأرض ، أو يصاب بالذهول من شدة الجوع ، ولا يرتضي لنفسه ذاك السؤال عند التسول ، وهذا موقف إنساني نبيل شكل جزءاً من شخصية الصعاليك وهذا مايصبونه الصعاليك في قالب شعري مؤثر على نحو قول الشنفرى في لاميته [38] :

أديم مطال الجوع حتى أميته

واضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

وأستف تُرب الأرض كي لا يرى له

علي من الطول أمرؤ متطولٌ

ولو اجتناب الذَام لم يلف مشرب

يُعاش به إلا لديَّ ومأكلُ

بالرغم من حياة الضنك والاملاق والتشرد التي عاشها معظم شعراء الصعاليك ، إلا أننا نلمس في قصادئهم تسامياً وتعالياً وفخراً حيث أنهم يفتخرون بأنفسهم عن طريق ذم

المجتمع في الكثير من الصور، وينفون عن إنفسهم الكثير من الصفات الذميمة التي كانت سائدة في مجتمعاتهم ، لقد شكل الإيثار من أبرز الاثرة لدى الاخر ، ويقول عروة [39]:

إني أمرؤ عافي إنائي شركة

وانت أمرؤ عافي إنائك واحد

أتهزأ مني ان سمنت وأن ترى

بوجهي شحوب الحقِّ والحقُ جاهد

أقسم جسمي في جسومٍ كثيرة

وأحسو قراح الماء والماء باردُ

وتصل المثالية إلى الصراع مع النفس والصبر على الجوع ، مقابل عون الضعيف والفتك بالخصوم والاعداء ، ويؤثر غيره على نفسه ، ويخشى أن يعيش بذلة ، لأن الموت خير من حياة تكتنفها المذلة ، يقول عروة [40] :

وإني لأثوي الجوع حتى يملَّني

فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي

واغتبق الماء القراح فأنتهي

إذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعمِ

أرد شجاع البطن قد تعلمينهُ

وأوثر غيري من عيالك بالطعمِ

مخافة أن احيا برغمٍ وذلةٍ

وللموت خير من حياة على رغمِ

هذا الإيثار دفع بزوجاتهم إلى حث أزواجهن إلى الاعتدال في البذل والعطاء وعدم الإسراف ، فلم يجدن أذاناً صاغية لنصح أو لوم، بل وجدن تبريراً للاسراف وتزيناً له ، على نحو ما يحكي تأبط شراً [41] :

تقول اهلكت مالا لو قنعت به

من ثوب صدق ومن يزٍّ واعلاق

عاذلتي إن بعض اللوم معنفة

وهل متاع وإن أبقيته باق

وقد قاد النبذ الاجتماعي للصعاليك الى مجموعة من القيم الاجتماعية الكريمة منها : كرم الصعلوك ، ووفاؤه لأصحابه من الصعاليك ، أما كرمه فهو مشهور معروف حتى قيل (كل صعلوك جواد) ولعلّ الفاقة في مجتمع القبيلة قادته إلى اتلاف أمواله في كرم مبالغ فيه ، غير أن جانباً إنسانياً جديراً بالتقدير هو تضامن الصعاليك في الحياة الاقتصادية على نحو العموم ، وفي وفائهم لبعضهم بعامة ، فكانوا يتقاسمون ما يغنمون بالتساوي ، سواء أكان ذلك من حارب أجل الغنيمة ، ام كان قاعداً لا يقوى على الخروج، أما وفاء الصعاليك فلأنهم كانوا يعيشون أقلية تتربص بها الدوائر، ومن ثم تولد لديهم هذا التلاحم في الوفاء والايثار من أجل مقاومة كلّ ما يدور بهم من دوائر ...

الخاتمة:

اسهمت الظروف الاجتماعية والسياسية في خلق اتجاها في الحياة الجاهلية يعاكس الاتجاه العام الذي بني عليه النظام القبلي ، ومما لاشك فيه إن في شعر هؤلاء الشعراء سعياً دؤوبا إلى الحرية والانعتاق في فضاء الإبداع غير الآبه بالسلطة ، بل لقد سجل هنا الشعر الضيق الشديد من كل القيود الاجتماعية والقيم التي لا ترعى للفرد حقوقه ، وهذا ما دفع طرفه بن العبد الى الوقوف بوجه تلك القيم التي سلبته حق من حقوقه ، وجعلته يعيش وحيداً متخذاً من اللهو واللعب اسلوباً للهرب من مواجهة تلك القيم ، لذا كان طرفة بن العبد يعيش أزمتين تسكنان معاً : الازمة الفردية والوجودية التي تبحث عن ملذاتها إلى حد الاشباع ، وسط سياج من الأعراف تحاول قمعه. وأزمة الوجود البشري المرصود بالموت ، ولهذا يقول :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

فذرني أبادرها بما ملكت يدي

والمبادرة بما ملكت يدي معناها الاقبال على متع الحياة ولذائذها ، بعيداً عن ظلم ذوي القربى ، وأخذت هذه الكلمات أثرها في النفوس وشكلت الثورة الحقيقية ضد الظلم والاضطهاد الذي عاناه الشاعر من عشيرته والقيم التي حالت بينه وبين حقوقه التي طالب بها .

في الجانب الأخر تجد صيحات تتعلى من الشعراء كان لهم مكانة مرموقة لدى أقوامهم ، لكن هذه الصيحات ليست موجهة للنظام القبلي وإنما لما كان ينالهم من ظلم واضطهاد من ذوي السلطة المتمثلة بالأمراء والملوك في الإمارات العربية ، وكانت ردات الفعل تتناسب مع القيم والمثل التي أمن بها العربي ، والرد المناسب لهذه

التجاوزات التي تحصل من الأمراء اتجاه القبائل العربية ، هو الوقوف بوجه الظلم والاضطهاد لذا شكلت أشعارهم انشودة للعلاقات التصادمية بين المبدع والسلطة .

وقد اسهم البناء الاجتماعي في تعميق الفوارق الحادة بين الطبقات الاجتماعية ، مما دفع إلى ظهور الصعلكة بوصفها ظاهرة اجتماعية، لاشك أنّ التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية ألقت بظلالها على شعر الصعاليك، إذ إنهم خرجوا معظمهم خلعاً أو اضطراراً من قبائلهم، وكان لذلك الأثر الواضح في اختلاف قصائدهم عن الشعر الجاهلي في معانيها وأغراضها ومظاهرها الفنية ، إذ حمل شعرهم دعوة جديدة وهي ضرورة الخروج على التقاليد القبلية ، لقد ضاق الحال بهؤلاء الشعراء بل لنقل بالفقراء منهم، فنشأوا في الصحراء ، وتبنوا القوة خياراً وحيداً من أجل تحقيق غاياتهم .

ولذلك كثر في شعرهم الحرب وما تبعها من وعيد ومغامرات بارتياد الأهوال ، وقد ساعد النظام الاجتماعي في القبيلة والعلاقات بين القبائل على إحساس بعض هؤلاء الشعراء الفرسان بالظلم ، ومن ثم خروجهم على هذه القبائل واتخذوا السطو والنهب وسيلة للعيش ، ويبدأ برفض التشكيل الاجتماعي لمجتمعه، والثورة عليه ، والبحث عن تشكيل جديد يتفق ورؤيته . كما يصف ذلك الشنفرى:

ولي دونكم أهلون سيد علمس

وارقط زهلول وعرف وحيال

الهوامش:

---

(1) ينظر: زمن الشعر– أدونيس، دار العودة، بيروت، 1978: 130.

(2) ينظر: شعراء العرب– العصر الجاهلي، يوسف عطا الطريفي، مطبوعات المكتبة الأهلية، الأردن، 2006: 255.

(3) ينظر: المَصدَرُ نَفسُه : 259.

(4) ينظر: المَصدَرُ نَفسُه : 259.

(5) ينظر: ديوان طرافة: 96.

(6) ينظر: ديوانه: 115.

(7) لا غرو: لا عجب – سئلت كذلك: هذا دعاء عليها، جزك الله غريبة فتسألين كما سألت جواب البلاء: السير فيها– حر دارك وسطها وأكرمها.

(8) ينظر: مدخل إلى علم النفس، د. أحمد فائق، مكتبة الأنجلو المصرية، 1966، الفصل الثالث عشر (الصراع ومجال السلوك الإنساني).

(9) ينظر: شعراء العرب: 258.

(10) ينظر: المَصدَرُ نَفسُه : 258.

(11) ينظر: شرح اختيارات المفضل، التبريزي، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت– لبنان، 1987: المفضلية: 41.

(12) ينظر: المَصدَرُ نَفسُه : 79.

(13) ينظر: ديوان المتلمس، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، د. ت: 203.

(14) ينظر: شرح المعلقات العشر، الشنقيطي، دار الأندلس للطباعة، بيروت، د. ت: 144.

(15) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، مكتبة النهضة، بغداد، 1978: 314/4.

(16) المَصدَرُ نَفسُه : 392/4.

(17) العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، إحسان النص، دار الفكر، دمشق: 61.

(18) الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، صلاح عبد الحافظ: 96–97.

(19) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: 567/4؛ والشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف: 108.

(20) مدخل إلى الأدب الجاهلي، إحسان سركيس، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1979: 200.

(21) ينظر: ديوانه : 124.

(22) الإنسان المتمرد، البيركامو، ترجمة: نهاد رضا، بيروت، د. ت: 20.

(23) ينظر: ديوان الشنفرى، أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، د. ت: 36.

(24) الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، د. عفيف عبد الرحمن، دار الفكر، عمان، 1977: 190.

(25) ينظر: ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، أسماء أبو بكر محمد، دار الكتاب العلمية، بيروت– لبنان، 1971: 46.

(26) التلهف ضلة: أي التلهف على شيء ضلال، الهجين: العربي الذي أمه أمنه.

(27) قعسوس: اسم فتاة، ظلت تقاصر دونها: أي تقاصر عنقها أمامي.

(28) ينظر: ديوانه : 68.

(29) ينظر: المَصدَرُ نَفسُه : 57.

(30) ينظر: المَصدَرُ نَفسُه : 79.

(31) ينظر: المَصدَرُ نَفسُه : 97.

(32) ينظر: المَصدَرُ نَفسُه : 68.

(33) يمسى طليحاً: قد أعيا وحسر من العمل كأنه بعير محسر، أي حسر ضعيف.

(34) ينظر: ديوانه : 69.

(35) ينظر: الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة، مصر، د. ت: 118/2.

(36) ينظر: المفضلية: الأولى.

(37) ينظر: ديوانه : 94.

(38) ينظر: ديوانه : 36.

(39) ينظر: ديوانه : 61.

(40) ينظر: ديوانه : 79.

(41) ينظر: المفضلية: الأولى.

المصادر والمراجع

1- الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، د. عفيف عبد الرحمن، دار الفكر، عمان، 1977.

2- الإنسان المتمرد، البيركامو، ترجمة: نهاد رضا، بيروت، د. ت.

3- ديوان الشنفرى، جمع أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، د. ت.

4- ديوان الشنفرى والسليك بن العلكة وعمرو بن براق، إعداد طلال حرب، دار صاحر، بيروت، د. ت.

5- ديوان طرافة بن العبد- مع شرح الأعلى الشنمري، تحقيق: عبد الرحمن الطنطاوي، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

6- ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، أسماء أبو بكر محمد، دار الكتاب العلمية، بيروت- لبنان، 2009.

7- ديوان المتلمس، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1970.

8- الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، صلاح عبد الحافظ، دار المعارف بمصر، د. ت.

9- زمن الشعر- أدونيس علي أحمد سعيد، دار العودة، بيروت، 1978.

10- شرح اختيارات المفضل، الخطيب التبريزي، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت- لبنان، 1987.

11- شرح المعلقات العشر، الشنقيطي، دار الأندلس للطباعة، بيروت، د. ت.
12- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، دار المعارف، ط3، لبنان، د. ت.
13- شعراء العرب- العصر الجاهلي، يوسف عطا الطريفي، مطبوعات المكتبة الأهلية، الأردن، 2006.
14- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، إحسان النص، دار الفكر، دمشق، 1973.
15- الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة، مصر، د. ت.
16- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، د. ت.
17- مدخل إلى الأدب الجاهلي، إحسان سركيس، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1979.
18- مدخل إلى علم النفس، د. أحمد فائق، مكتبة الأنجلو المصرية، 1966.
19- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، مكتبة النهضة، بغداد، 1978.

Clash In Jahili Poetry

Abstract:

The Arabic Poetry in general and the Jahili Poetry in Special witnessed many Clear evidences on clash between the Arabic poets and those who were in the political Social and religious regimes. That Clash and Confront was not a mere will within those poets but it was a type of feeling of freedom and the wish to express such feeling in their poetry. They felt that their freedom in speech should not be Limited at ary rate.

In Jahili poerty we may find such clash in many poems to the degree that such clash becams as if it were a phenomenon that referd to those poets many signs of clash can be clearly found between the poets of that time and the tribal Controlling Forces. Thus this research went in to two directions: the first is the Clash relation between the innovator and the Political tribal authority and the Second direction mentions the clash relation with the Social beliefs and Conventions The first part was reflected by many poets of theim was Tarafa Bin Al- Abid. The verses of those poets were examples of that clash relations between those poets and the authority at that time. While the Second direction was reflected by Al- Saalik poets. It was so for the Social life did much in deepening the differences between the Social classes a matter that helped much in the appearing of Al saalaka phenomenon. Both abore phenomena clearly affected the poerty of that time in its meaning, purpose and techniques.